مجلة أبوليوس
المجلد 09 العدد 01 – جانفي 2022
الصفحات: 78- 94

المدن الصحراوية الجزائرية في أدب الرحلة الفرنسي بين التصوير والتنميط مدينة الأغواط نموذجا

Algerian Desert Cities in the French Journey Literature between Representation and Stereotypes: the City of Laghouat as a Model

د. المسعود جوادي[1]*، د. عيسى بريهمات[2]
[1]المركز الجامعي بآفلو (الجزائر) *m.djouadi@cu-aflou.edu.dz*
[2]جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر) *brihmat.aissa@yahoo.fr*

تاريخ الاستلام: 2021/10/23 تاريخ القبول: 2022/01/31 تاريخ النشر: 2022/01/31

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة صورة الجزائر من خلال كتابات اثنين من الكتاب الفرنسيين الرحالة، في سياق استعماري، وخلال القرن التاسع عشر. تتخذ الدراسة كمثال تمثيلي صورة مدينة الأغواط المجسدة في كتابات "يوجين فرومونتين" في صحراء وساحل و"هنري ديفريي" في جريدة الرحلة . هذه الكتابات ذات الطابع الإثني المركزي و الاستعماري، المحملة بغرائبية كاذبة ،لزمت صمتا مروعا حيال المدينة ضحية الإبادة الجماعية البغيضة .هذه الكتابات تكرس مسافة مسببة للعمه وتنقل صورا اجتماعية مخدرة ،مجافية ، ممسوخة ...هذه التمثلات النمطية خنقت صوت العربي، ومحت كل ما هو محمدي ولا تستجيب بشكل جيد إلا للرغبات الشبقة والمصالح الاستعمارية الفرنسية.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، الصورولوجيا، المركزية، الكولونيالية.

abstract

This study addresses the image of Algeria through the discourse of two French writers-travelers, in the colonial context, during the nineteenth century. It sets a sketched image of Laghouat depicted in the book of Eugene Fromentin in 'Sahara and Sahel' and Henri Duveyrier in a Travel Journal. These writings, featured by ethnocentric and colonial traits, quenched by false exoticism that reprimanded expansively a revolting silent to the city, a quarry to an awful genocide. These writings triggered off a gap and represented a repugnant, rude, and a fake societal conception ... This stereotyping representation suffocated the Arab voice, and alienate Mohammedan believers and respond only to their devotees.

Keywords: Travelogue, imagology, centralism, colonialism.

* المؤلف المراسل

1. تمهيد

تندرج هذه المقاربة في مجال مبحث الصورولوجيا(Imagologie)[1]، أحد حقول الدراسات المقارنة التي تهدف إلى تقصي الكيفية التي تنشأ بها الصور والصور النمطية Stéréotype لأمة لدى أمة أخرى أجنبية. ومن المهم أن أذكر هاهنا أن الصورة التي تقدمها الآداب القومية للشعوب الأخرى عادة ما تكون موسومة بالذاتية وغالبا ما تختلط فيها المشاعر والانطباعات والميول مشكِّلة مصدرا أساسيا من مصادر سوء التفاهم بين الأمم والدول والذي يقف حائلا دون تكريس تواصل طبيعي.

هذا الضرب من الدراسة يسعى إلى مراجعة الأحكام والمواقف وتصحيح الصور المحرفة والمشوهة، التي تتقاذفها الأمم في إطار الصراع والعدوان ، لخلق تواصل طبيعي بين الأمم والشعوب. هذا الضرب من البحث هدفه معرفة الحقائق وتأسيس التفاهم بين أمتين يتاح لهما تبادل التأثير والتأثر وتحليل ذاتيهما، ومعرفة مصادر أحكامهما وصورهما . وبهذا الصنيع نأمل أن يزول الوهم، وتتوطد المعرفة الموضوعية،وتمحى تلك الأحكام الجزافية المسبقة والمفرطة في الغلو والذاتية ،والتي عادة ما تطمس الصورة الحقيقية[2] .

والمتتبع للصور الواردة في ثنايا الرحلات التي قام بها الرحالة الفرنسيون إلى الجزائر في القرن 19،يجدها تندرج في مجال سيكولوجيا الشعوب أو في مجال مبحث الصورولوجية. وهي بمثابة تمثيل – representation - شعب أو أمة في ثقافة شعب آخر، مثلما تعني التمثيل الذي يحمله شعب ما عن نفسه. إذن فهي وعي بالذات وبالغير(أناسا وفضاءات).إن الصور التي حملتها هذه الرحلات منها ما ترد مرسومة وأخرى مكتوبة تعنينا وهي كلامية لكنها مطابقة لشكل مرئي وهي ليست واقعية مطلقا ولكنها لا يمكن أن تكون بأي حال من الأحوال مختلفة كلية عن واقع هذا البلد - الجزائر-.

إن الباحث في هذا النمط من الدراسة الأدبية المقارنة، يسعى إلى إزالة اللبس والأوهام عن بعض الصور التي تكون بمثابة دعامات أو إرهاصات لفلسفة تاريخيه أو فكر متعصب متحيز يستهدف تبرير التسلط والعدوان على الشعوب بدعوى الحضارة والتمدن. هذه الصور المبثوثة في وثائق الرحالة الأوروبيين ليست حيادية ولا بريئة بل مقصودة وموجهة وفق استراتيجية تدخل في إطار معرفة الأخر معرفة غيرية ،بل هي في واقع الأمر أكثر من هذا « معرفة تقييميه تستند إلى منظومة قيم معينة تمارس تأثيرها على الباحث، فتوجه تعامله مع الموضوع الذي يدرسه وتوجه اختياره للمفاهيم والفرضيات والوقائع»[3].

واللافت للنظر أن الصور التي جاءت بها الكتابات الرحلية. تنتمي في الغالب إلى قراءات خيالية ذهنية ،أما الصور التي حملوها كتبهم بعد زيارة "الأغواط "والصحراء عموما ،فهي عبارة عن فعل ثقافي انتقائي محمل بأوهام مسبقة. وانتقاء الصور في حد ذاته ،تحليلا وتركيبا، قد يكون نوعا من التشويه الظاهر والخفي في الصورة المكتوبة. ومثل هذه الأبحاث ما هي إلا محض محاولات الهدف منها تحديد وتعديل صورة بلد عند رحالة أو أديب من الأدباء، وقد تنتهي أحيانا إلى هدم أو ردم البعض من تلك الحدود التصورية الخيالية ،التي تفصل الشعوب، وتوسع بينها الهوة، وتعمق فيها نزعة النفور والعدوان.[4]

وفي سبيل بحث موضوعي تعتمد هذه الدراسة إشكالية بحثية تتأسس على التساؤل الأساسي التالي : كيف تشكلت صورة المدن الشرقية في

الكتابات الرحلية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر ؟ ومن خلال أية إستراتيجية خطابية ومرئية؟. ومن هذا المنطلق سنحاول البحث في عوامل تشكل هذه الصور في حقل التأثيرات المتبادلة بين رؤى العصر وحساسيته وتصورات الفرد . سيعتمد أساس المقاربة على أهمية السياق في تحديد بنيات الخطاب الرحلي، وتحديد الأفعال الكلامية التي تنجم عن عملية التواصل.

تتفاعل الصورة في شكل جدلي متبادل مع القيم السائدة في السياق الذي ينشأ فيه الخطاب الواصف للرحلة ؛ فالقيم المعتمدة في تنميط الصورة تعتمد على منظومة فلسفية تصورية للقيم المكونة و المحددة للصورة المعبر عنها . تتلازم الرحلة والمقارنة بشكل رابطة لا يمكن بحال من الأحوال فصمها أو فصلها . أما شخصية الرحالة المستكشف فتتحدد حسب منظومته الاجتماعية و الفكرية ومن خلال التباينات التي ترتسم أمامه من صور و مشاهد تعبر عن «الغيرية». تنمط الذات الفاحصة « الآخر / الغير » في قوالب نموذجية تجعل منه أحيانا «آخر » موازياً على قدر من المساواة ، كما قد تظهره « آخر » منحطاً وبالتالي قد يجلب الاستعداء لـ«الأنا» الفاحصة . وقد يبرز « الآخر»، أحيانا ، في ثوب الغريب العجيب، مما يبعث في النفس فضولا و ريبة في التعامل معه . تتشكل هذه القيم «الغيرية» في سياق فكري ثقافي ، يتميز أساسا بالحساسية المفرطة [5].

ويتضح لمن يمعن النظر، أننا أمام صور لا تعكس حقائق ووقائع فحسب بل خطابات وتمثلات تتستر خلفها قوى المؤسسة بما تملك من استراتيجية أو «معرفة غربية أمست الحاجة تدعو إلى نقد أسسها، ومراجعة تلك الأسس»[6].في واقع الأمر، كل معرفة تتناول المجتمع الإنساني، هي مغايرة لتلك التي تتناول العالم الطبيعي، بوصفها معرفة تاريخية تقوم على الأحكام والتفسيرات والتأويلات التي تمليها الخلفية الثقافية المتباينة بين الأنا والآخر. وهذا يعني أن الحقائق تستمد أهميتها مما يسبغه التفسير الأجنبي عليها والصادر من قبل الرحالة - كاتب، رسام، فنان، سائح...- في ظروف مخصوصة. عسكرية ،استعمارية ، توسعية[7]...

وقد اخترنا للمقاربة مدونة تتكون أساسا من مذكرتي رحالتين قاما بزيارة إلى مدينة "الأغواط "في منتصف القرن التاسع عشر. كما اعتمدت الدراسة على نسختين قديمتين من المذكرات ، وهي نسخ محمَّلة من المكتبة الوطنية الفرنسية B.N.F عبر بوابتها الإلكترونية المعروفة Gallica. نقدم، قبل الخوض في الموضوع ،مقدمة بيوغرافية للرحالتين .

2. معطيات تعريفية

- **"الأغواط"**

واحدة من المدن الجزائرية التي تقع على الحد الفاصل بين ما يعرف محليا بالتل ؛ الجزء الفاصل بين الصحراء والبحر المتوسط ؛ و الصحراء. تتمتع "الأغواط" بموقع على قدر كبير من الأهمية ، خاصة في طريق القوافل وحركتها ذهابا و إيابا بين الشمال والجنوب ؛ أو على طريق الحج القديم فأغلب رحلات الحج القادمة من المغرب تتوقف في المدينة كإحدى أهم المحطات [8].

والمدينة تُعرف منذ القديم بوصفها واحة محاطة بالنخيل، تشتهر بوقوعها على جانبي نتوءات جبلية تمتد على شكل سلسلة صغيرة . يمر شرقي المدينة مجرى «وادي مزي » الذي يذكر على الخرائط الجغرافية بـ«وادي جدي».

- **يوجين فرومونتان [9] (Eugène Fromentin):**

ولد بتاريخ 20 أكتوبر 1820 بـ «لاروشيل» و توفي في 27 أوت عام 1876 . فنان من مشاهير الفنانين الفرنسيين، ممن يعرفون في ميدان الفنون التشكيلية بالاستشراقيين « orientalistes» . تحصل على إجازة في القانون سنة 1843 وعلى إثرها سمح له والده بالالتحاق بمدارس الفنانين بفرنسا. قام في العام 1846، وخلسة عن أهله، بزيارة الجزائر لأول مرة رفقة اثنين من أصدقائه. سمحت له هذه الرحلة الأولى بأخذ نماذج فنية « des croquis» عن المناظر الطبيعية و سكانها.

وقد كانت لوحته الموسومة بالعنوان « مضائق الشفة Les gorges de la chiffa»؛ التي تعبر عن المنطقة الشهيرة بين ولايتي المدية و البليدة حاليا ؛ ضمن مجموعة فنية شكلت فاتحة لأوائل معروضاته الفنية عام 1847 . و قد توالت تشريفاته بعد ذلك حين عرض لوحة بعنوان «نساء من الجزائر » نال بموجبها وسام الدرجة الثانية وفي السنة 1859 حصل على وسام الدرجة الأولى ، وبه أصبح من مشاهير الفنانين . لقد أسهمت رحلته الثانية إلى الجزائر سنة 1852 ، و التي اكتست صبغة تنقيبية أركيولوجية في تعميق إحساسه وتدقيق موضوعاته المتعلقة بالتصوير الطبيعي الواقعي لموضوعة الجزائر و الشرق عموما .

يشد الدارسين وجود تباين واضح بين شهرة «فرومونتان » الفنية و بين مكانته الأدبية و الأكاديمية . ففي الوقت الذي كانت لوحاته مبعث الإعجاب لدى جمهور الفنانين و نقاد الفنون ، حيث كان يمثل أحد أعمدة هذا الميدان[10] إلا أن مكانته الأدبية أكاديميا لم ترق إلى نفس المستوى وحالت دون حصوله على الكرسي أثناء عملية التصويت بالأكاديمية الفرنسية سنة 1876. بالرغم من شهرة مؤلّفاته ؛ على قلتها ؛ فمن الآثار الأدبية التي خلفها كتابه الشهير « صيف في الصحراء » الذي كان أول إصدار له سنة 1854 على صفحات « مجلة باريس Revue de Paris» ، وقد عكف سنه 1856 على تحرير كتابه « سنة في الساحل Une année dans le Sahel» بوصفه أول إصدار له سنة 1857 ، أعاد نشره على صفحات دورية « العالمين Revue des deux mondes » الشهيرة . بهاذين الكتابين عُرف في فرنسا كناقد ولقد تآزرت في أعماله الكلمة مع الصورة فعكستا عالم الشرق بشرائعه وأعرافه الأخلاقية والجمالية.

تعتبر « Dominique» العمل الروائي الوحيد لـ«فرومونتان» ، و الذي أصدره سنة 1863 مصدّرا بإهداء خاص للكاتبة الفرنسية «جورج ساند » التي أشادت كثيرا بأعماله الأدبية خاصة ما تعلق منها بأدب الرحلة[11] . و قد كان لهذه الآراء النقدية دافعا كبيرا في إقدام « فرومونتان » على الرواية ، و التي تعتبر سيرة ذاتية للكاتب تتناول مرحلة المراهقة التي عاشها . والغريب الذي لا بد لنا أن نذكره في هذا المقام ما يثيره النقاد بإجماع حول اللغز وراء الغياب التام لـ"فرومونتان" الرحالة على صفحات الرواية . فعلى الرغم من أن الرواية كتبت في مرحلة متأخرة عن الأعمال الأدبية الرحلية و عن الأعمال الفنية الاستشراقية، التي كانت من بين أهم الأبواب التي ولج منها كاتبنا عالم الشهرة ، لكن لا نكاد نقف على أثر أو ملمح شرقي أو صحراوي يوحي بتمكن التجربة الاستشراقية من الكاتب ولو في جانب التخييل أو الاستطراد.

- **كاتبنا الثاني هو « هنري ديفيريي Henri 12 Duveyrier » (1840– 1892):**

جغرافي و رحالة من مشاهير الرحالة الفرنسيين ، كان منخرطا في طائفة السيمونيين « les saint-simoniens » وذلك لكون والده « شارل

ديفيريي » كان أحد أقطابها؛ و قد كان لهذا الانتماء دور كبير في تحديد منهجية تربيته ، كما كان للأب دور كبير في توجيه مستقبل ولده . فقد نشأ الولد نشأة قريبة من الوسط الديني المشبع بتعاليم الطائفة المسيحية الداعية لمبادئ سيادة العلوم و أهميتها في تحقيق الوحدة بين الشعوب . انعكس هذا النهج التربوي على حياة « هنري ديفيريي» فاعتنق منذ طفولته المبكرة ، في سن السادسة عشرة، فكرة التوجه نحو الاستكشاف ، وصرح في مذكراته عن نية الكشف عن جوانب لا تزال بكرا في مجاهل إفريقيا. وبالفعل نفذ مشروعه في ربيع 1857 فقام بأول زيارة إلى الجزائر. كانت هذه الرحلة استطلاعية تدريبية أشرف عليها الرحالة و الجغرافي «أوسكار مكارتي Oscar Mac Carthy». نُشرت وقائع هذه الرحلة تحت عنوان «يوميات رحلة في ضواحي الجزائر Journal de voyage dans la province d'Alger » ، سنوات بعد موته .

تمتع « ديفيريي» بشهرة كبيرة في الأوساط الأكاديمية ، فقد كان عضوا بارزا في الجمعية الملكية للجغرافيين . و قد أهلته رحلاته و كتاباته ، خاصة ما تعلق منها بدراسة منطقة الطوارق في الجنوب الشرقي للجزائر ، لأن يصبح مرجعا مهما لكل من يعتني بدراسة المنطقة خصوصا و الصحراء بصفة عامة . نذكر أن رحلات « ديفيريي » تعتبر رائدة إلى حد ما؛ ففي زيارته الأولى للجزائر كان قد وصل مدينة الأغواط ، التي كانت تمثل آنذاك حدود التوسع الاستعماري الفرنسي تجاه الجنوب.

نشير في هذا المقام أن كتابات « ديفيريي» اعتمدت مصدرا مهما للدراسات المتعلقة بوضع خطط و مشاريع التوسع الاستعماري في الجنوب . فعلى الرغم من الصورة الإيجابية التي حاول رسمها للعلاقة الطيبة التي طبعت عملية تواصله مع الطوارق إلا أن التاريخ يذكر استبسال الطوارق في التصدي لهذه العلاقات الاستعمارية . ويلاحظ الدارسون أن صور «ديفيريي» كانت نمطية و تنميطية للفئات الإنسانية الصحراوية، وهو بهذا التنميط يخدم برامج الحملة الفرنسية بتكريس الفرقة لصالح السيادة الفرنسية .

تسمح لنا هذه المقدمة البيوغرافية من تمييز السمات العامة للسياق الذي نشأ فيه الخطاب الرحلي الذي نحن بصدد التعامل معه و محاولة سبر بعض صوره. فالرابط بين الرجلين يتمثل في التقارب الزمني ، من حيث الميلاد وزمن النشأة، كما يتقاربان في وقت القيام بالرحلة و مكان الوصول مدينة "الأغواط " ،التي كانت في تلك الفترة تمثل حدا جنوبيا للتوسع الاستعماري . يضاف إلى ذلك أنهما سارا عبر نفس الطريق الرابط بين "الجزائر" العاصمة و"الأغواط" .كما يشترك الكاتبان في الاهتمام بالجزائر من حيث هي نموذج عن تيمة عامة تتمثل في « الآخر الشرقي».

تتمثل نقطة اللقاء بين «فرومونتان » و « ديفيريي» في مبادرتهما الذاتية وروح المغامرة وحب الاستكشاف ، الذي ميز الكثير من رحالة القرن التاسع عشر ، و ما صاحبها من حركات ترحال واسعة في مختلف اتجاهات العالم ، و قد كانت جهة الشرق ؛ بمفهومه الأدبي؛ أهم هذه الوجهات . في هذا السياق لا يغيب عن أذهاننا ذلك التوجه الرسمي الذي كان يرعاهما في ترحالهما وإقامتهما ويتكفل بأعبائهما[13] فيجعلهما يسكتان عن بعض الحقائق بل يتلافيانها في الرسوم والكتابات .وهذه المواقف لم تمنع «فرومونتان »من أن يتميز بصدق الإحساس مع احترام العرب والمسلمين مخلدا مآثرهم ومشيدا بجمال ألبستهم وخيولهم ،لكنه برر من جهة ثانية

استعمار فرنسا للجزائر التي سماها إفريقيا "الفرنسية"[14].

3. قبل الوصول إلى مدينة الأغواط

ننطلق في تتبع الخطاب الرحلي للرحلتين ، محل الدراسة، من نقطة واحدة و هي المرحلة التي تسبق مدينة الأغواط ، وتحديدا من «سيدي مخلوف». هذه المدينة التي تضم حاليا تعدادا مهما من السكان ، لم تكن في ذلك الوقت أكثر من مقام ضريح الولي الصالح محاطا بعدد من القبور .يقوم هذا الضريح غير بعيد ، بجانب محطة قوافل يرتاح عندها المسافرون و يريحون مطاياهم . يحدد المعلمان محطة أخيرة قبل الوصول إلى الأغواط و اتفق أن قضى كل من «فرومونتان » و«ديفيريي» ليلتهما بالخان[15] ، لكنهما اختلفا في تقديم صورة عن المكان . تركز اهتمام « فرومونتان » ، على عادته، حول وصف الخان و محتوياته و طريقة بنائه وهندسته . كما تحدث عن معاناته في المبيت، بسبب هبوب الزوابع الرملية وعدم وجود باب للغرفة التي قضى فيها ليلته[16]، يضاف إلى ذلك إعياءه الشديد وتخوفه من العقارب والأفاعي التي تكثر في المنطقة . نجد في مقابل ذلك أن « ديفيريي» يتغاضى عن تقديم أية صورة عن مكان المبيت بل يكتفي بتسميته بالخان «caravansérail » لكن اهتمامه كان منصبا حول العثور على نوع من قوارض المنطقة ليحمله معه إلى باريس لتقديمه إلى الهيئات العلمية [17].

نلاحظ من خلال الصفحات التي تحدثنا عنها[18] أن «فرومنتان» شغوف بسرد الأمكنة بإحساس فني فائق ، بينما نجده يكتفي بإعطاء صورة موجزة عن الضريح ، واكتفى بتصوير ملامحه الخارجية دون عناء الدخول إليه . في المقابل نجد « ديفيريي» يحدثنا عن انبهاره بما وجده في الداخل من روائح و عطور وشموع و هدايا . فما السبب الذي منع الأول من الدخول ؟ وما هو العامل الذي سمح للثاني بالولوج إلى عمق المكان وكان الأجدر أن لا يتجرأ على ذلك ؟ قد نجد بعض الإجابة في زمن المغادرة لكل واحد من المغامرين ، أي أن السبب عائد لكون « فرومونتان » قد غادر في جو لا يساعد على التريث والتأمل نظرا للزوابع الرملية التي تحول دون أن يفتح عينيه[19] . أما جرأة «ديفيريي » فتعود للحظوة التي وجدها عند مرافقيه العرب، فهو يذكر أن الدليل الذي رافقهم من منطقة « مقيطع الوسط » لما أراد المغادرة عند «سيدي مخلوف» قد سجل اسمه على شكل تذكار وسماه بـ « الطالب هنري» ، و هي عبارة دالة على الاحترام ، سواء لقيمتها العلمية أو الدينية ، مما قد يدعو رفقاء الرحلة من العرب إلى السماح للغريب بدخول أماكن تكتسي قدرا من القداسة.

يصور « فرومونتان » الطريق إلى الأغواط بشكل من التدقيق و التصوير الفني الذي يجعل القارئ يتتبع الصور وتظهر أمامه لوحة قائمة . فقد صور التضاريس الجبلية نتوءاتها و ألوانها و تناظراتها بشكل دقيق [20]. لكنه استغرب من ظاهرة البعد بين المدن فبالنسبة له إن الأغواط أول مظهر عمراني يصادفه منذ غادر «الجلفة ». يلجأ «فرومونتان» إلى استحضار صورة التوزيع العمراني في بلده الأصلي ، حيث تتواصل المدن الكبرى عبر طرقات واضحة المعالم ؛ تحفها الدور والقرى . يقطع « ديفيريي» نفس المنطقة لكن بشيء من الاختصار فلا يتوقف كثيرا لوصف الطريق ، بل يكتفي بذكر معاناته مع العطش ، لأن نفسه تعاف شرب الماء من بئر على الطريق .يزداد الإحساس بالعطش تأثيرا في الرحالة حين يدرك أنه و على بعد حوالي أربع كيلومترات شمال الأغواط يكون قد دخل الفلاة التي يسميها الأهالي « بلاد العطش». وهنا تتجلى قوة الرحالة و استعداداته.

يتم الدخول الفعلي للأغواط ، الذي لا يزال آنذاك عبارة عن تجمع سكاني صغير نسبيا مقارنة مع الوقت الحالي، لكنه كان يعد أهم قصور الصحراء، عبر المدخل الشرقي ، أين سيجد «ديفيريي» الينابيع التي سيروي منها ظمأه. تشكل صورة الماء والاخضرار ، تحت ظلال النخيل داخل الواحة المنبسطة أمامه نوعا من المكافأة فهو قد حقق أول الأهداف التي طالما حلم بتحقيقها الوصول إلى الأغواط ، كآخر نقطة أذن له والده ببلوغها. يقدم لنا «فرومونتان » المدينة كلوحة فنية ، مستخدما أسلوبا خطابيا موحيا ، يجعل المتلقي يحاول رسم الصورة ، بل الصورة سترتسم أمامه كأن الكلمات تغدو ألوانا وأشكالا و مما يزيد انبهارا بدقة التصوير سعي الرحالة لأن يقدم لنا المشهد بكل تفاصيله وبكل تشكيلات ألوانه . كل ذلك يعبر عن حس فني مرهف لما يعرض أمام الرحالة - الرسام .

لا نجد صعوبة في تحديد انطباع «فرومونتان » وانبهاره بصورة الصحراء[21] و بقوة الإضاءة التي تسحره ؛ حتى تفلت منه مشاعره الخفية. يتتبع أدق تفاصيل الألوان و يحاول أن يبرز سمات الصحراء ، في لحظة من أبرز اللحظات التي تشكل معلما زمنيا مهما في مظهر الاستعراض الفني للصحراء [22]، ساعة الظهيرة ، و هو يقترب رويدا رويدا من مدينة الأغواط أوان الصيف ، شهر جوان . هنا نقف على سمة فارقة و مميزة بين تجربتي الرحالة ؛ فهي سطحية وعديمة الدقة عند«ديفيريي»؛ لكن فائقة الدقة عند «فومونتان». استغرقه وصف المرحلة قبل دخول الأغواط ، والتي سبقت الإشارة إليها . نجد أن هذه المرحلة امتدت على مجموع صفحتين اثنتين من مذكرات « ديفيريي» ،في المقابل، نجدها تستغرق أكثر من الأربع صفحات في كتاب «فرومونتان» . إضافة إلى التفوق العددي المادي ، نجد ثراء واسعا في مذكرات «فرومونتان » من حيث القيمة التصويرية الفنية . ولا أدل على ذلك من تنوع الألوان لرسم الصورة ؛ ففي الوقت الذي اقتصر «ديفيريي » على الألوان النمطية للصحراء و الواحة؛ الأصفر و الأخضر. فإن لوحة « فرومونتان » لوحة تشع حيوية ؛ تمتزج فيها الألوان بين الأسود و الأبيض والبنفسجي و البني، وهي ألوان لا تشكل طبقة واحدة بل لكل منها طبقات و تداخلات[23] .

4. لحظة الوصول ... وانطباعاتها

يعتبر المكان المعروف بـ « رأس العيون » مدخل مدينة الأغواط للقادمين من الشمال ، و بما أن رحالتينا قد قدما من جهة الشمال ووفق مسار واحد ،فالطبيعي أن يكون دخولهما من ذلك المكان .نتوقف عند هذه النقطة لنطرح افتراضا من وجهة نظر منطقية أن القادم من جهة رأس العيون يكون أقرب نحو البوابة الشرقية المعروفة محليا بـ«الباب الشرقي» ، لكن المفارقة أن الرحالتين قد دخلا من بابين مختلفين . دخل «فرومونتان » من الباب الشرقي و دخل « ديفيريي» من الباب الغربي . نطرح تساؤلا حول السر في اختلاف المداخل أم هي الصدفة ؟

نتتبع الرجلين فيما دوناه منذ لحظة الوصول إلى مشارف المدينة ؛ فنجد أن دليل «فرومونتان » سيقوده عبر طريق مليء ببقايا الأشلاء التي عرت الرياح الرملية قبورها . هذه الأشلاء و العظام التي تتكشف ،وكأنها أعجاز نخل خاوية، على طول الطريق تعود لشهداء الإبادة الرهيبة (1852) التي وقعت بعد معارك شرسة ، وهي أحداث لم يمض عنها من الوقت إلا حوالي ستة أشهر. يرسم « فرومونتان » المدينة وهي لا تزال تحمل من آثار الاحتلال الشيء الكثير أبوابها وأزقتها ومنازلها بادية

الحروق والجروح والكسور. ما زالت بصمات همجية الاحتلال الشرس باقية كندبات على وجه المدينة، فهي « نصف ميتة ، وموتها كان عنيفا»[24]. آثار القذائف تفضحها الجدران و الأبواب ، أما أسقف معظم المنازل ،التي طالها القصف، فتبدو سوداء مهشمة وخالية على عروشها. تركت حرب الأزقة، التي وقعت في الرابع من ديسمبر الماضي، آثارا على الأبواب الخشبية من حراب البنادق . صورة المدينة كما تحسسها الرحالة كانت تبعث في نفسه رهبة كبيرة .

يمتد وصف «فرومونتان» للمدينة منذ لاحت أمامه إلى أن وصل إلى المقر المخصص له ليقيم فيه عبر العديد من الصفحات[25]. وفي البيت الذي أُعد ليقيم فيه سيصادف الرحالة الكثير من آثار الحرب وهمجيتها، سواد السخام يعلو الجدران من مخلفات الحريق ، سقف بعض الغرف العلوية و أرضياتها قد أزالتها قذيفة مدفع[26].في لحظة يخلد الرحالة إلى نفسه، بحس شاعري ويتساءل عن السبب الذي دعاه للتواجد في مكان بائس كالذي يقيم فيه ، و بالرغم من ذلك يقوم في نفسه شعور بالرضا عما يقوم به ، فهو يرى أن سلامته الشخصية هي من ضمن آخر اهتماماته[27] .

يدخل « ديفيريي »عبر البوابة الغربية للمدينة ؛ فلا يبرز لنا أي أثر للمعركة التي وقعت قبل مجيئه بأربع سنوات وبضعة أشهر. تبدو العبارات الأولى التي يصف بها دخوله للمدينة مقتضبة و غاية في الإيجاز ففي جملتين ينتقل بنا من البوابة الغربية إلى معسكر القوات الفرنسية أين يستقبل بعشاء، بعد ذلك ينتقل الرحالة و مرافقيه إلى مكان إقامتهم بقصر الحاكم العام. يراقب الرحالة الشاب الحديقة التي تطل عليها نافذة غرفته، و تجذبه الروائح المنبعثة منها ، فيستحضر أجواء « ألف ليلة و ليلة » الساحرة . وبطريقة مفاجئة أيضا يخلد إلى النوم بعد اليوم الشاق الذي مر به . تقفز بنا عبارات « ديفيريي» بشكل سريع ، يلاحظ عليها عدم الاسترسال في عرض الفكرة . يتباين تصوُّره للمدينة على أنها « عاصمة الصحراء »[28]وتصويره لسحر منظر الواحة مع ما قدمه عن المدينة . يذكر أنه عندما قام في اليوم الموالي ، و بعد تناول فطور الصباح ، خرج للتجول في حديقة القصر ، شد انتباهه وجود نعامتين تسرحان ، وفجأة يكتشف وجود شاب من الطوارق كان لا يأمن على نفسه لذلك فضل الاختباء في أحد الإسطبلات ، وكان في مهمة ينتظر الحاكم العام الذي كان غائبا [29].

نقطة فارقة أولية بين الرحالتين ، تتمثل في اتصال الفضاء الذي يمثل مقر الإقامة بالفضاء الآخر / فضاء الأهالي؛ باعتباره فضاء مغايرا يدعو للحذر. يبقى «فرومونتان» متصلا بالآخر من خلال وقوع منزله بمكان يُبقيه مطلا على ساحة مركزية، يطرقها الأهالي للاستسقاء هم و بعض من جمال القوافل التي تجوب الفضاء الجذاب / الصحراء التيمة الساحرة . نجد «ديفيريي » يقيم في حمى وكنف مؤسسة عسكرية منعزلة عن فضاء المدينة ذي السمة العربية الأمر الذي سيخلق عزلة بين الفضائين تبقى قائمة عبر مدونة الرحلة . يعكس تباين مقر الإقامة المشار إليهما تطورا في موقف « فرنسا» المؤسسة الاستعمارية، وذلك من خلال ظهور الهياكل التوسعية كالقواعد العسكرية التي تعبر عن الاستحواذ و الهيمنة على الفضاء البكر الساحر.

نعود للإجابة عن السؤال الذي سبق لنا طرحه ، والمتعلق باختلاف المداخل ، أن «فرومونتان» قد مر من الباب الشرقي وقد صدمه منظر الساحة التي عوض أن تكون للراحة وجد نفسه يشق طريقه عبر مقابر لم تعد تكتم بشاعة الموت و بشاعة التوسع الاستعماري . شاهد ذلك لكونه كان يسافر بشكل

فردي و عفوي . أما الشاب « ديفيريي» فقد كان في رحلة تعليمية ، رحلة هدفها إعداده للقيام بمهام أكبر ، لأن والده كان من الأعيان و كان على قدر كبير من التكوين الأكاديمي . يضاف إلى ذلك أن الطائفة « السيمونية » قد بدأت أخذ سمة الطائفة الفلسفية و المؤسساتية التي تسعى لنشر تصوراتها للنهضة الفرنسية . وقد أطر الرحلة رجال كانوا على علاقة نسبية مع والد الرحالة ، لهذا فانخراطهم في هذا المشروع التعليمي كان لا يسمح فيه أن تترك الأمور دون توجيه أو متابعة[30].

5. مشاهد من الأغواط

تستحوذ صورة شاب الطوارق و العلاقة به وجوانب النقاش معه على أغلب ما دونه «ديفيريي» من المادة المتعلقة بالإقامة بالأغواط ؛ و التي استغرقت أسبوعا . سيقضي أوقاته في التجوال و التقاط الحشرات و اصطياد ما استطاع من دويبات المنطقة ، كاليرابيع و السحالي و غيرها.كما سيكون حضور العرب باعتبارهم سكان المنطقة أطيافا فقط ، فقد نراهم مجرد مجموعة من الأطفال يرافقون الرحالة في جولاته خلال البساتين ،وقد نراهم مجموعة من الفضوليين ومن الأهالي المتسكعين ، يجتمعون لمشاهدة تمرين الرماية الذي كان يهدف منه الحاكم العام إبراز التفوق الفرنسي ليبهر الشاب القادم من بلاد الطوارق ، المنطقة التي تمثل مشروعا توسعيا في مضمرات المخطط العسكري الفرنسي . يرِد العربي في معرض المقارنة مع الطوارق ، باعتبار العربي صورة سلبية عن الطوارق[31] ، الذين يقتربون من الرجل الأوربي .

يختتم « ديفيريي» مشاهد مدينة الأغواط برحلة الصيد ، أين سيتعلم درسا في الفروسية ، يتعلق في كيفية التعامل مع الفرس حين ينطلق في العدو و دور اللجام في إيقافه . كان الرحالة يحمل مفهوما خاطئا عن العملية و ذلك من خلال مقارنة طريقة التعامل مع الخيل الأوروبية و خيل البريد التي سبق أن تعامل معها خلال رحلته. يقضي آخر يوم له في المدينة بالتنقل لجمع عينات حية عن الحيوان و النبات ؛ لكنه يذكر بامتعاض عدم إفلاحه في الحصول على جرذٍ من الجرذان التي تعيش في أعالي النخيل .

نطالع مذكرات «فرومونتان» فنجد فيها الشيء الكثير عن المدينة و سكانها . فقد وصف فضاءاتها المتباينة: الأزقة والساحات و الأسوار. كما اهتم الرحالة بحسه الفني بالأفراد، هيئاتهم في مختلف الأعمار والأجناس ، وألبستهم و أعمالهم . تحدث «فرومونتان » أيضا عن التاريخ و عن احتلال المدينة و بشاعته ، فقد حاول تقديم لوحة فسيفسائية متكاملة عن المدينة ، لوحة مملوءة بالأحاسيس والانطباعات و المشاعر ؛ كما تدخل رحلة «فرومونتان» ضمن سياق وتوجه عام ، هو إطار الحركة الاستعمارية الفرنسية ، الذي لا يمكن التغاضي عنه، نظرا لم يبديه من تفوق غربي جائر على معطيات الفضاء، فهو يحاول « أن يقنعنا بأنه جاء إلى الجزائر ليمثل الإنسان الغربي القوي القادر على إخضاع الفضاء الشرقي، ثم السيطرة عليه »[32] . تشع الألوان في كل صور ررحلات «فرومونتان» ؛ كانطباع أولي، و هي طريقته المعتادة في هذا الجنس من الكتابة[33] . لقد رسم المدينة من بعيد في مناظر "بانورامية"، وماذا يُرى بداخلها ولم يغفل عن المشاهدات التي سجلها من خلال إشرافه على ما يحيط بالمدينة من جبال جهة الشمال و من فلاة جهة الجنوب .

يمكننا تلخيص بعض مشاهد مدينة الأغواط ، بإيجاز لأن ما كتبه الرحالة فيه الشيء الكثير و لا يسعنا المجال هنا للإتيان به كاملا ،في تركيزه على

سمة الصمت التي تطبع المنطقة . فهو رأى المدينة صامتة لأنه دخلها وقت الظهيرة، والمكان الوحيد الذي وجد فيه بعض الناس كان المقهى ، حيث عثر على بعض ممن كانوا معه في القافلة التي أقبل فيها . يلازم الصورة هذا الصمت وقلة الكلام في العديد من المشاهد. الرجال قلما ينطقون يكتفون في الكثير من الأحيان بالإشارة، وينشغلون بـ «تعداد» حبيبات مسبحاتهم [34].تختلف هذه الصور عن صور الفرسان الذين يرى فيهم قوة وانطلاقا على ظهور الخيل ليس جلوسا على السروج بل في هيئة الواقف على الركاب ، صورة شيقة قد أبهرت الرحالة كثيرا[35]، وهي صورة هدف من خلال إيرادها ، في معرض حديثه عن ظاهرة الهدوء الذي عدَّه خمولا ، إلى أن يبرز التباين الصارخ بين ما يبدو من سمات و بين ما يختبئ في نفوس الرجال من صفات محمودة ، لكنها قد تحمل دلالات الخوف من غموض هذا الآخر الذي لا يؤتمن. نشير فقط أن إقامة «فرومونتان» بالأغواط تزامنت مع شهر رمضان المعظم ، وربما كان الحر والصوم من عوامل بروز سمة الرتابة على المشهد خصوصا في الظهيرة.

يقدم «فرومونتان» صورة أخرى عن الأغواط متحدثا عن بساتينها ؛ التي يزورها في وقت الظهيرة هربا من قيظ الصيف ، فيقضي ساعات تحت ظل أشجارها المنعشة ، فتسمح له بالخلود إلى نفسه بحثا عن الجمال. يقع الرحالة في معرض مقارنة بين الحدائق التي أمامه ، و التي تشبه المظلات الكبيرة ، وحدائق الشرق التي رآها في منطقة بسكرة. تذكره أشجار النخيل بحدائق بلده ، و خاصة منطقة «النورماندي» . يلاحظ غياب أشجار الزيتون و الليمون والبرتقال إضافة إلى أشجار السرو . أما الشيء الذي شد انتباهه في البساتين وجود جدران عالية تحد من النظر واتساع أفقه. شبه شبكة الطرقات عبر الحدائق بالمتاهة ، التي يصعب الخروج منها . والتفت مليا إلى نظام السقي التقليدي وكيف يجعل مجرى الوادي يغمر شوارع الواحة فيصير السير عبرها أمرا شاقا.

يتحدث « فرومونتان » عن الحيوان في منطقة الأغواط ، فيذكر الجِمَال ، جمال القوافل التي تجوب البلاد و كيف يحدث أن تصادف بعضها في باحات المدينة؛ كما يذكر أنه قد يحدث للمار عبر الأزقة الضيقة أن يضطر إلى أخذ طرق تجنبية حين يتزامن مروره عبر هذه الشوارع لضيقها بدخول بعض هذه القوافل المحملة للمدينة ، فحينها سيضيع داخل غابة من السيقان الطويلة لهذه الإبل التي لم تألف بعد طبيعة المدينة. كما يحدثنا عن بقية الحيوانات الأليفة التي يصادف وجودها في العادة في المدن ؛ لكن الأمر الغريب ما يذكره عن الكلاب التي ألفت مكان مرتفعا بضاحية المدينة ، لدرجة أنه أصبح يرد مضافا إليه فيما عرف بـ« صخرة الكلاب rocher des chiens»، وجه الغرابة أن هذه الكلاب كانت لأهالي المنطقة قبل الاحتلال لكنها مع هول الهجوم على المدينة ، كانت قد هجرت المدينة هي الأخرى مع من بقي من الأهالي، واستوطنت المكان الذي وجدها فيه و قد صورها في عراكها و سيطرتها على المرتفع الذي تقيم فيه كأنه قلعة من قلاعها [36]، كما ذكر الرعب الذي تثيره في الليل خصوصا .

وفي هذا المضمار تستوقف الرحالة النسور والغربان الناعبة التي اجتذبتها وفرة الجثث بعد احتلال المدينة،. هذه الجوارح والقوارض تزيد المدينة بؤسا على بؤس، وتكشف مدى التحول الذي أحدثه التواجد الاستعماري؛ ليس على طبيعة العلاقات البشرية فحسب، بل امتد هذا الأثر إلى أوكار الحيوان. يستفيد الرحالة الباحث من موضوع الحيوان ويؤرخ لتواجده. يشير إلى وجود النعام الذي

كان يلجأ أحيانا و مع فصل الجفاف إلى ينابيع « رأس العيون» ليروي ظمأه . يحدثنا عن وفرة الغزلان في المنطقة وبعض الفوائد التي يجدها الأهالي في هذا الحيوان[37].

بغير ما جهد كبير نستنتج كأنما الرحالة يعرض فضاء الصحراء بوصفه خلوا من الإنسان – العربي الصحراوي الشرقي- لصالح الحيوان وفي هذا ربما دعوة لجذب الزائر الفرنسي الأوروبي عموما ليستغل عذرية هذا الفضاء الفسيح الممتد على امتداد البصر. على الرغم من الاجتثاث السكاني الذي مارسته الحملة الحربية العدوانية البشعة على سكان الواحة العزل. من منطلق إنساني لم يلتفت إلى مصاب الأهالي وربما أهمل وصف أحوالهم التي نتجت عن ذلك الاجتياح وتلك الإبادة لقد أغفلها . سكت عن الحقائق والوقائع، طمس الحرب وهو الفنان المعروف برقة الإحساس والذي وجد في الصحراء المترامية عزاء لحب فاشل في بلده. هل هذا السكوت يعتبر تواطأ من قبل «فرومونتان» لأن رحلتيه الثانية والثالثة(1852) قد تمتا برعاية مباشرة من قبل السلطات الرسمية الفرنسية في الجزائر؟؟.

تكشف ملاحظات «فرومونتان» غربته عن المنطقة ، وإخفاقه في إقناع الأهالي بأن يكونوا نماذج استعراضية يرسمها ؛ خاصة النماذج النسائية . على الرغم من الإغراءات ؛كان عليه أن يفهم أن الأمر أكبر من أن يكون تمنعاً سطحياً، فـ«الشرف والعفة» أمر غاية في القداسة و أصيل في شخصية السكان . وهو الأمر الذي جعل من البساتين محصنة ، عالية الجدران لأن الأهالي لم ينظروا إلى بساتينهم من منظور الزينة والاستراحة بل هي جزء من ممتلكاتهم الواجب الحفاظ عليها . تتضح لدينا معالم الصورة التي كان يبحث عنها الرحالة / الرسام في بحثه عن صورة الشرق الساحر والشاعري التي حطمها الواقع الاستعماري المر. في أكثر من مرة ، سواء في وصفه لمجالس المقاهي ، و في وصف الجِمال التي أناخها البدو غير بعيد وسط الساحة وهي رتع بالقرب من الينبوع العمومي نجد صورة الشرق الأدبي في قصص صائد النعام ، وفي سمر ليالي شهر رمضان. يظهر الشرق حين يسرح الرحالة بفكره مستشرفا من شاهق الضاحية الجنوبية للمدينة فيذهب خياله بعيدا ليجوب الصحراء الواسعة وعوالمها المتعددة و المترامية.

6. على سبيل التركيب

سبق أن ذكرنا فيما مر بنا ما يوجد من تزامن وتقارب بين العملين الأدبيين اللذين تناولتهما المقاربة ، فمن حيث اعتبارنا للمعيار الزمني اعتبارا دياكرونيا، نجد أن الرحالتين على قدر من التقارب في السن ، فرغم الفارق الموجود بينهما ؛ والمقدر بعشرين سنة من العمر؛ يجعلهما في نفس الجيل ، مما لا يمنعنا من الافتراض أنهما عاصرا نفس الواقع من جانب الحركات الفكرية والفلسفية التي شهدتها فرنسا. ننوه بأن هذا لا يعني بالضرورة انتماءهما لنفس التيار الفكري ؛ كما سنرى لاحقا.

يشترك المؤلفان في الوجهة و اعتباراتها الجغرافية و التاريخية ، فالجزائر و الأغواط خصوصا كانت تمثل وجهة سفر ومغامرة واستكشاف . كما تمثل من جهة أخرى عاملا مهما ؛ بالنسبة للفرنسيين ؛ لإثبات الذات وذلك من خلال مقارنة اثنولوجية . فقد اعتبرت الجزائر، و من خلالها المستعمرات الفرنسية رمزا من رموز الشخصية والسيادة الفرنسية . نجد اعتبار الشرق و جاذبية صورته في المخيال الغربي حاضرة لدى الرحالة في

القرن التاسع عشر ، ورحالتينا لا يشكلان استثناء في ذلك .

يتفق كل من «فرومونتان » و «ديفيريي» في تدوين رحلتيهما على شكل مذكرات يومية carnet de» «route، وإن اختلفا في طريقة عرضهما؛ فالأول جسدها في شكل رسائل ، ليجعل المخاطَب المفترض فيها صديقا له، يخاطبه أو يستدعى لتذكر ما سبق قوله أو افتراض سياقات أو استدعاء صور سابقة عن سياق الرحلة في معرض التشبيه والتصوير ، تفترض من القارئ انخراطا ضمنيا في الخطاب الرحلي . تُقدم لنا مذكرات رحلة «ديفيريي» بعد موته في شكل مذكرات يومية مباشرة كأنها مقتطعة من مذكرات شخصية . يبرز لنا هذا التنوع في تدوين الرحلة ديناميكية الخطاب الرحلي وتنوعاته التي تضمن عنصر التشويق و استمرارية هذا الجنس الأدبي في سياقه العام .

يتقارب الرحالتان في النزعة الاستشراقية والاهتمام بتيمة الشرق . ويبرز هذا الاهتمام عند «فرومونتان»؛ في انتمائه إلى تيار فني بارز ، تشكل من خلال اتخاذ موضوعات الشرق محورا للتعبير الفني التشكيلي. ويتجلى الميل الشرقي لدى «ديفيريي» في نزوعه أثناء دراسته للاقتصاد و علوم التجارة، التي كانت بتوصية من والده ، إلى تعلم اللغة العربية على يد «فلايشر H.L .Fleischer (1801-1888) »[38]. لم يكن هذا الميل نحو الشرق و الآداب مقبولا لدى أساتذته الألمان في الاقتصاد ، لهذا كان يمارس هوايته خلسة .

يعتبر العامل الزمني من العناصر التي قد تشكل فرقا ، على النقيض مما رأينا سابقا ، فالفارق بين الرجلين وبالتالي بين الخطابين هو اعتبار « سانكروني ». نجد «فرومونتان » في بداية العقد الثالث من عمره ، فتجربته تكون أنضج ، ورؤياه أوضح وأعمق . بَلَغَ « ديفيريي » السن السابعة عشر، أياما بعد وصوله إلى الجزائر ، الأمر الذي يجعل رؤيته أقل عمقا من«فرومونتان» ومذكراته تعرب عن فقد للحنين والدفء العائلي . ترافق مشاعر السلطة الأبوية «ديفيريي» طوال رحلته ، وشكل رفيقه «ماك كارتي» جزءا من هذه السلطة ، التي كانت تمثل الحماية والموجه لمسارات الرحلة و طريقة تصرف الفتى التي كانت محاطة بهالة تغلف و تؤطر كل صغيرة وكبيرة فيها ، وقد سبق لنا الحديث عن مسألة اختيار ما يمكن أن يراه الشاب و ما لا يمكنه الاطلاع عليه . نجد هذا الشعور بالحاجة للحماية ما شعر به «ديفيريي» لما تأخر «ماك كارتي» عن الركب فقد شعر بالقلق ، كما شعر بالخوف لما مشى وحيدا في شوارع « قصر البخاري»[39].

تعبر هذه السلطة الأبوية عن سلطة مؤسسة فكرية و فلسفية ، كانت تتمثل في العلاقة بين «ديفيريي الأب » و«ماك كارتي»، و ذلك من خلال الانتماء الفكري العقائدي للرجلين و للعديد من الشخصيات التي سيصادفها الرحالة الشاب عبر مسار رحلته . انطبع الفكر المؤطر لرحلة الشاب بنظرة إيجابية للظاهرة الاستعمارية التي أراد من خلالها « السيمونيون» تحقيق مشاريعهم الإنمائية الخاصة بتحقيق الريادة لفرنسا[40]، لهذا كان يجب الاقتصار على عرض الصورة الإيجابية ومحو كل ما من شأنه أن يشير إلى عنف عملية التوسع . كانت هالة الإطار السلطوي التي رافقت رحلة «ديفيريي» سببا في الحد من توسع علاقاته مع الأهالي / العرب بالأغواط ، ولم يكن اختلاطه عبر كامل محطات رحلته بهذا الجنس إلا بمعطيات براغماتية تخدم أهداف الرحلة.

نجد ؛على النقيض من ذلك؛ «فرومونتان » يتمتع بقدر كبير من الحرية ، في التنقل و الاختلاط

بمختلف فئات المجتمع ، والوقوف على العديد من التجارب الإنسانية للسكان. كما أننا نجده في العديد من مشاهداته و سياحاته يتنقل منفردا . يرافق فرومونتان في بعض المواقف و الزيارات التي لا يتصور قدرته على القيام بها ، لعوامل المحافظة التي يتسم بها المجتمع الشرق عموما ، أحد الضباط الصغار، ضمن رتب الجيش الفرنسي، الذي يجيد الكلام باللغة العربية والتي يعتبر من كثرة تعامله مع مجتمع الأغواط دليل سهَّل على «فرومونتان» الوقوف على جوانب كثيرة من حياة سكان الأغواط .

والذي تهمنا الإشارة إليه هو أن وعي الكاتبين وانتسابهم إلى «أنا» معتدية جعلهم يقصون الإنسان الجزائري من أعمالهم الأدبية وحتى من رسومهم يتحاشونه، إلى درجة ما؛ قد تتباين من كاتب إلى آخر ، لكنها تبقى سمة حاضرة إما صراحة أو كناية عبر صور كاريكاتورية أو إشارات ذات دلالات تهكمية. لتبدو الصحراء أرضا خالية من المحمديين فيجب أن تعود إليها مسيحيتها. فالصحراء ما هي إلا عالم فارغ يحتله الصمت جذاب وغريب أرض شاغرة بدون بشر. و رغم هذه المحاذير نجد أن فرومونتان قد كان أكثر قربا وارتباطا بالفضاء / الصحراء ، الذي وجد فيه سرا جعله يبدع في أعماله الفنية الشرقية ، كما ظهر هذا التوجه من خلال مدونته الرحلية.

يشترك كل من «فرومونتان» و «ديفيريي» في استحضار صور من البيئة التي نشآ بها لتقريب بعض الصور التي تمثل أمامهما، خاصة في معرض الحديث عن صورة البساتين و أشجارها المثمرة . تتفاوت من جهة أخرى درجة استغلال الصور النمطية المرسومة لمدن الشرق و الصحراء . لكن الملاحظ أنه في الوقت الذي يبقى «ديفيريي» وفيا لهذه الصور النمطية بل ويكتفي بها ؛ يعمد «فرومونتان » أحيانا إلى انتقاضها ، كما سبقت الإشارة له في رسم صورة مناقضة للمألوف عن سمات الأهالي و ميلهم إلى السكينة و الرتابة . و نجده في صورة أخرى مخاطبا صديقه يستعيد صورة للعربي كانت قد ارتسمت لديهما من تجربة سابقة لمشاهدة عرب في صورة كاريكاتورية ، يدعوه إلى محو هذه الصورة السلبية بتقديم صورة مناقضة .

يمكننا تبرير هذا التناقض بين الرحالتين ، في إطار ما سبق الحديث عنه من أن كتابات «فرومونتان » كانت موجهة للنشر وتقديم تجربة ، تتسم بالتحرر من أطر المؤسسة الاستعمارية إلى حد كبير . و لنقل أنها متشبعة بحس فني واقعي بقدر معتبر ، فهي أميل للقيم الرومانسية التي كانت تشكل تيارا مهما . أما مذكرات «ديفيريي» فقد كانت موجهة لفئة خاصة[41]، ربما بتوصيات أبوية، لأن هذه المذكرات نشرت بعد موت الرجل ، كما أن الرحالة عهد بتحريرها و إعادة صياغتها إلى أخيه الأصغر ، الذي ترك مقاطعا منها كان «ديفيريي» قد دون فيها تجارب لم ير أن الواجب أن يطلع عليها أخوه القاصر ، لذلك دوَّنها باللغة الألمانية . ولم تنشر هذه المذكرات بصيغتها الكاملة إلا على يدي صديق الرحالة «مونوار Maunoir»[42].

تتحدد صورة مدينة الأغواط من خلال الخطابين الذي تناولهما العرض ، كمدينة تتميز بقيمتين متباينتين. "أغواط" رُسِمت لذاتها ، بألوانها ، بسكانها وأعمالهم بفرحهم وأحزانهم ؛ بقيمهم و ببؤس ما مر عليهم من أحداث، بحيوانها الأليف والبري بالطريف منه والغريب. "أغواط" فيها من التاريخ و القيم الدينية، ما يجعلها مقاصد الرحالة والتجار والحجاج . وهي مدينة تحمل من معاناة الإنسانية وبطش الاحتلال بصمات دامية . رآها «فرومونتان» كآخر ما يمكنه أن يصل إليه ، مما قد يعد ممتلكات فرنسية في الشمال الإفريقي، فقد رأى

فيها وجها آخر من «أناه»، وجه توسعي يبطش من غير رحمة.

أما عند « ديفيريي» فالمدينة تبدو شيئا مختلفا مفارقا فهي ليست سوى محطة أولية في تجاربه و في مشروعه الاستكشافي. تلاشي صورة الأغواط المدينة والبشر وكل ما فيها أمام صورة الشاب « أحمد محمد » الذي يمثل رجال الطوارق في أول لقاء مباشر مع الرحالة الفتي . تتمكن من الرحالة فكرة الحاجة إلى القيام بتجربة قد تثبت وجوده ضمن علاقات المجتمع الأكاديمي الفرنسي ، و بالفعل كان لهذه العلاقة واللقاء الذي لم يتجاوز الأسبوع دور كبير في انفتاح آفاق الصحراء أمام «ديفيريي» لدرجة سيصبح معها من أهم مراجع الفرنسيين في دراسة الطوارق والتعرف على حركات الصحراء الدينية كبعض الطوائف الصوفية .

خاتمة

مما سبق نستنتج أن رحالة القرن التاسع عشر ، في جملتهم ، حاولوا رسم صورة للعالم الجديد الذي يشهد عملية احتلال و توسع غربي ، مثَّلت ظاهرة إنسانية انعكست فنا أدبيا تتنامى مدونته بشكل مطرد بإقدام العديد على تدوين مشاهداتهم ومغامراتهم عبر مجاهل هذا العالم الجديد ، الذي طالما مثل العدو والغريب و الآخر المبهم. قدَّمت كتابات الرحالة العالم المستكشَف عبر صور مجزأة و مجتزأة ، سواء بقصد أو من دونه ، تبقى دوما تعوزها سمة التكامل والعمق فاقدة التاريخ والأنا. يعود هذا النقص إلى عوامل كثيرة، ربما يمثل ما تحدث عنه «إدوارد سعيد» في نقده للظاهرة الاستشراقية أحد أهم أسباب «التجزيئية» التي تطبع صورة الشرق ، التي تصطنع و تصاغ نماذجها بشكل قصدي.

نجد كذلك أن صورة المكان الواحد تتشظى وتتعدد، فنموذجنا المقترح للمقاربة، مدينة الأغواط، هي مدن أو أجزاء مدينة بحسب خبرة وتجربة كل رحالة غربي كان قد زارها. فهي مدن لأن انطباع ووصف كل رحالة يذكر أشياء يهملها رحالة آخر، إما جهلا أو تجاهلا؛ و إن حدث أن وجدنا نقاط مشتركة بين الرحالة فإن الصورة تكون مجتزأة ؛ كلٌ يذكر ما يتقاطع واهتماماته وميدان تخصصه؛ فهذه المدينة ، نموذج المقاربة، قد عرفت زيارات متعددة من طرف رحالة أدباء وجغرافيين واقتصاديين و تجار وضباط مختلفين و في كل من هذه الخطابات تبدو لنا شيئا مختلفا، بقدر ما. وهكذا يمكننا القول أن المدينة كما توصف في الخطاب الرحلي لا تكاد تكون موجودة كاملة بالفعل إلا في ثنايا ذلك الخطاب الذي قدمها لنا. ويكفينا القول أن الأغواط وسائر أرض الجزائر بلورت العملية الإبداعية والروحية لدى مجموع الرحالة وخاصة «فرومنتان» الذي يعترف قائلا:« إنني أعيش خارج الزمان والمكان، منذ أكثر من شهر، حيث أهذي في اليقظة وأخشى أن أستيقظ»[43].

وفي هذا المنحى تتعزز المقولة التي تتخذ من أبعاد الـ (الرؤية المركزية) عاملا مهما لمقاربة المدونات الرحلية. فهذه القيم المرتبطة بالخلفيات التي تشكل و تحدد معالم رؤية الرحالة، لها دور فعال في تحليل الخطاب الرحلي، والوقوف على بنيته وملابساته السياقية والنسقية. بل يمكن الاطمئنان إلى التسليم بصحة الحكم القائل « تعمل هذه الشبكة المفاهيمية والفكرية والثقافية على التأسيس لمقولات ضابطة لسَنَن "القول" وأنساقه التواصلية والحجاجية.»[44]، ففي المحصلة لا يخلو الخطاب الرحلي من بُعد الحجاجية التي يتوجه بها إلى جمهور متعدد التوجهات من المتلقين، وإن كانت أغلب مقدمات المدونات الرحلية تفترض قارئا محددا لها.

فالرحالة يعالج موضوعا يحتم خليه تحقيق الإقناع لدى فئة اجتماعية ينتمي إليها، مستعملا خطابا يتوافق ومنظومة ثقافية وفكرية معينة، كما يصدر أحكاما من خلال نفس الخطاب يفترض فيها تحقيق قدر من القبول لدى المتلقين.

ودون تحفظ يمكن الجزم بأن خطاب الرحلة قد حمل معطيات سياقه الذي نشأ فيه ، من خلال التزامه سواء الصريح المعلن أو المضمر في ثنايا المقولات المؤسِّسة للصورة التي اعتمدها، سواء كقوالب حجاجية تهدف لتبرير الحركة الاستعمارية أو في شكل دعوات لاقتحام مجاهل العالم الجديد وفق المنظور الكولونيالي. حاولت المدونة الرحلية أن تكون بابا يلج من خلاله الغربيون عوالم الصحراء و مدنها التي طالما مثلت تيمات ميثولوجية وأدبية لعالم غامض و منبسط الأبعاد، يثير الفضول و الفتنة بنفس القدر الذي يسيل لعاب الطامعين في اكتشافه بغية تدجينه وترويضه.

يبدو أدب الرحلات كالنص المترجم يتيح للمتلقي الدخول إلى بنى ثقافية أجنبية، منتجا بذلك ما يمكن أن يوصف بشكل من أشكال الترجمة، محولا ما هو مجهول وغريب إلى مصطلحات يمكن أن يتمثلها المتلقون ويفهموها عند عودتهم إلى بلادهم كغريب مدجن. كاتب الرحلات يشتغل في فضاء غير متجانس، لغويا وثقافيا، على غرار ما يقوم به المترجم بوصفه وسيطا يستحيل عليه أن يكون محايدا وموضوعيا بلا ميول فهو يعمل في فضاء عدائي شديد الخطورة، كثيرا ما يوصف بأنه أرض شاغرة تحتاج لمن يعمرها أو يستعمرها.

الهوامش والإحالات

[1] - الصورولوجيا مركبة من كلمتين صورة (Image) و(Logie) علم .لفظ صورة مشتق من الأصل اللاتيني (Imago,Imaginis) واللفظة تتطابق نسبيا مع عدة ألفاظ منها لفظة(Eikon) اليونانية وهي بمعنى إيقونة الفرنسية (Icône) ولفظة (Phantasme)أو(Fantasmer) في الفرنسية والتي تعني فيما تعنيه تصور، تخيل، استهام. ومن الألفاظ المشابهة والمقاربة نذكر أيضا (Mirage) السراب الذي يتراءى في الصحراء من بعيد وكذلك (Fantôme) الشبح أو الطيف وهما وخيالا.

[2] ينظر: عيسى بريهمات ، صورة الشرق في أدب فولتير الروائي والمسرحي والقصصي، رسالة ماجستير في الأدب المقارن، معهد اللغة والأدب العربي ،جامعة وهران،1984،ص1 ص.-25.

[3] - إدوارد سعيد ،تغطية الإسلام ، ترجمة سميرة خوري،بيروت1983،ص77.

[4] – صورة الشرق في أدب فولتير الروائي والمسرحي والقصصي، م.س،ص270.

[5] ينظر جوادي المسعود ، الرؤية المركزية دراسة مقارنة في الخطابات الرحلية العربية و الغربية، رسالة دكتوراه، ، قسم اللغة والأدب العربي ،جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2017، ص. 53 .

[6] - *R.Preisnerk, D.Perrot, Ethnocentrisme et histoire ,Ed . Anthropos ,Paris,1975,p.350.*

[7] - إدوارد سعيد، مرجع سابق ،ص ص.170-180.

[8] نذكر تمثيلا لهذه الرحلات رحلة العياشي القرن السابع عشر.

[9] من مصادر ترجمته : الموسوعة الحرة على الشبكة الدولية «ويكيبيديا » مادة «أوجين فرومونتان» .

[10] من بين لوحات فرومونتان التي استقاها من الصحراء ومن الأغواط والتي تكشف عن عبقريته نذكر: (بلاد العطش)، (صيد الإبل)، (غابة النخيل)، (صياد صقور عربي)، (حرامية الليل) ، (مخيم من جبال الأطلس)

[11] جورج ساند في كتابها النقدي «*Au tour de la table*» طبعة باريس ، سنة 1882 ، بداية من ص 329 .(تحميل من المكتبة الوطنية الفرنسية).

[12] قدم له عبد الرحمان بدوي ترجمة في «موسوعة المستشرقين » طبعة دار العلم للملايين ،بيروت ، ط3،1993، ص 264 .

[13] « كانت الدولة الفرنسية تبعث إلى الجزائر جيوشها العسكرية والعلمية ،وكل من زار الجزائر منذ الثلاثينات من رجال الفن والأدب والعلم كان يزورها إما بطلب رسمي من الدولة الفرنسية، وإما بتأمين غطاء رسمي لها عبر التكفل بالأعباء المادية، بهدف دراسة وبحث النتاج المادي والروحي للشعب الجزائري بغية إخضاعه. وينتمي إلى هذه السياسة. أ.فرومونتان الذي مثل اتجاها بارزا في الوسط الثقافي الفرنسي هو اتجاه البين بين(Le juste milieu) يحاول التوازن فيه بين الموقف الشخصي الإبداعي والموقف السياسي الرسمي. فقد أسرته غرائبية الجزائر لكنه ظل دائما "فرنسيا مخلصا ".»

ينظر: بيطار زينات ،الاستشراق في الفن الرومنسي الفرنسي، علم المعرفة، الكويت، يناير 1992 ،304.

[14] ينظر: نفس المرجع نفسه،ص306.

[15] يسميه « فرومونتان » فندقا، لكن الصورة التي يقدمها له لا توحي بكونه فندقا بل هو أشبه بمحطة استراحة خالية ، لأنه لا يتحدث عمن يقوم بالخدمة فيه.

[16] ينظر فرومونتان ص 65.

[17] كان الاعتقاد السائد أن الجرذ الذي يتسم بطول أنفه حيوان غير موجود ، ولهذا كانت عناية الرحالة بأن يأخذ عينة معه ، من أهم الأمور العلمية.و قد طلب من مرافقه العربي أن يصطاد له ما يمكنه أن يأخذه معه كتذكار . ديفيريي ، ص 47 .

[18] يقصد بها الصفحات التي تتحدث عن الإقامة في محطة «سيدي مخلوف» .

[19] ينظر فرومونتان ، ص 65.

[20] نفسه ، ص 67.

[21] تعد هذه الرحلة بمثابة الرحلة الثانية إلى الصحراء ، فقد سبق له أن زار الصحراء عبر مضائق القنطرة ، و له فيها وصف مميز . تختلف زيارة الأغواط عن الرحلة الأولى أن «فرومونتان» سيسجل لحظة الانبهار في وقت الظهيرة مما يجعل الإحساس بالصحراء كأنه جديد .

[22] ينظر فرومونتان ، ص 67 إلى 70 .

[23] ينظر في هذا الصدد ، تمثيلا صورة الفارس الذي كان في انتظار القافلة ، و وصف سرير «وادي مزي» الذي عبره الرحالة قبل الوصول إلى الأغواط. ص 69.

[24] فرومونتان ، ص 73 .

[25] عددها في النسخة التي اعتمد عليها في هذا العمل أكثر من خمس صفحات.

[26] فرومونتان ، ص 77 و ما بعدها.

[27] نفسه ، ص 78 .

[28] ديفيريي ، ص 48 .

[29] ديفيريي ، ص 52 .

[30] يدل على حس الرقابة و العناية بتوجيه الحوار أنه حدث؛ لما استرسل الرحالة و صديقه الشاب في جلسة على انفراد فعرض عليه مرافقته إلى بلاد الطوارق ، لكن التحاق المرافق «ماك كارتي» بهما جعلهما يغيران موضوع الحديث إلى مجال الجغرافيا و الرحلة عبر الصحراء. ديفيريي ، ص 55 .

[31] ديفيريي ، ص 53 .

[32] عطاشي عيسى ، صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتين نموذجا، مذكرة تخرج (ماجستير)، جامعة الجزائر، 2006، ص 105.

[33] يقدم الباحث عيسى عطاشي في دراسته كما هاما من المعطيات الإحصائية المتعلقة بالألوان التي أوردها «فرومونتان» في كتابه «صيف في الصحراء» ذات دلالة معبرة عن انبهار الرحالة بقيم الصحراء الفنية ممثلة في تباين الألوان و شدة سطوع ضوء الشمس . ينظر: عطاشي ، مرجع سابق، ص 54 ؛ ص 97 ومايليها.

[34] فرومونتان ، ص 104، 107.

[35] نفسه ، ص 108 .

[36] نفسه ؛ ص 135 .

[37] فرومونتان ؛ ص113 .

[38] ترجمته في المرجع التالي: نجيب العقيقي؛ المستشرقون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 5، 2006 ، ج 2 ، ص 362.

[39] ديفيريي ، ص 36 -37 .

[40] للمزيد من التوسع في الموضوع يراجع المقال التالي :

Dominique Casajus :Henri Duveyrier et le désert des Saint-Simoniens, article paru dans :Ethnologies comparées, n° 7, printemps 2004 [http://recherche.univmontp3.fr/mambo/cerce/r7/d.c.htm]

[41] ينظر :مقدمة المذكرات التي تعبر صراحة على أن الهدف من تدوين مذكرات الرحلة لم يكن موجها للنشر ، و أنها ذات طابع شخصي ، كعرفان لما قدمه الوالد من دعم لابنه الرحالة.

[42] شارل مونوار (1830- 1901)عضو الجمعية الجغرافية بباريس و أمينها العام بين 1867و1896.

[43] *Fromentin .E .Les lettres de jeunesse, Plon-Nourrit et Cie , Paris, 3eme éd. 1909, p.182.*

[44] جوادي المسعود ، مرجع سابق ، ص 223.

قائمة المصادر والمراجع:

اعتمد في هذه المقاربة على المدونة التالية كمصادر أساسية:

- ***Eugène Fromentin :Sahara et Sahel, librairie Plon, Paris1857, novelle édition illustrée , 1887.***
- ***Henri Duveyrier : Journal d'un voyage dans la province d'Alger : février, mars, avril 1857,Paris, Augustin Chalamel, s.éd, 1900.***

إدوارد سعيد. (2006). الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق (الإصدار ط 1). (محمد عناني، المترجمون) القاهرة: رؤية للنشر والتوريع.

جوادي, ا .(2017). .الرؤية المركزية دراسة مقارنة في الخطابات الرحلية العربية و الغربية، رسالة دكتوراه .ورقلة: قسم اللغة والأدب العربي ،جامعة قاصدي مرباح.

زينات بيطار . (1992). الاستشراق في الفن الرومنسي الفرنسي. الكويت: مجلس الثقافة.

عبد الرحمان بدوي. (1993). موسوعة المستشرقين (الإصدار 3). بيروت: دار العلم للملايين.

عيسى بريهمات. (1984). صورة الشرق في أدب فولتير الروائي والمسرحي والقصصي. وهران: معهد الأدب بجامعة وهران.

عيسى عطاشي . (2006). صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتين نموذجا. مذكرة تخرج (ماجستير). جامعة الجزائر.

نجيب العقيقي. (1964). المستشرقون. القاهرة: دار المعارف.

Casajus, D. (2004). :Henri Duveyrier et le désert des Saint-Simoniens, n° 7, printemps 2004. *Ethnologies comparées*(7). Récupéré sur [http://recherche.univmontp3.fr/mambo/cerce/r7/d.c.htm

Duveyrier, H. (1900.). *Journal d'un voyage dans la province d'Alger : février, mars, avril 1857*. Paris: Augustin Chalamel.

Fromentin, E. (1887). *Sahara et Sahel*. Paris: librairie Plon.

Fromentin, E. (1909). *Les lettres de jeunesse* (éd. 3). Paris: Plon-Nourrit et Cie.

R.Preisnerk, & D.Perrot. (1975). *Ethnocentrisme et histoire*. Paris: Anthropos.

Sand, G. (1882). *Autour de la table*. Paris: Calmann Lévy.